تعريف بالكتاب

بقيت هذه المسرحية الاغريقية من القرن الرابع قبل الميلاد ، وتبقى اليوم من المطالعات المختارة ، وان لم يكن لها حظ هذا البقاء والتداول فى عالم الآداب المسرحية ، ولها أن تعيش اليوم بين نخبة المطالعات ، لأنها تعيش بحق العبقرية الخالدة وحق الحياة الانسانية التى تعرضها على القارىء العصرى كأنها احدى قضايا عصره وأخبار صحافته واذاعته ، وأهمها قضية الحرب والسلم ، وقضية المرأة ، وقضية الأدب المكشوف ، وقضية الفن ومزاج الفنان كما يؤثر فى الحياة الاجتماعية وتؤثر الحياة الاجتماعية فيه .

وتسمية الرواية باسم بطلتها « ليزستراتا » يوهم القارىء أن مدار المسرحية كلها على قضية المرأة وحقوق النساء ، قبل الرجال فى الحياة العامة والحياة الزوجية ، ولكن قضية الحرب والسلم فى الواقع هى مدار الجدل والحوار فى المسرحية كلها من الألف الى الياء . وهى القضية التى من أجلها ثارت النساء الأثينيات وجمعن أخواتهن الاسبرطيات لوقف القتال بين الاثنتين الشقيقتين ، ووقف القتال عامة بين أمم الأغريق وغيرها من أمم العالم . وانما جاء الكلام عن حقوق المرأة عرضا فى خلال المناقشات بين رؤساء الدولة وقائدات الثورة لتسليم معقل الدولة وخزانتها وموئل الحكم والسياسة فيها ... وبين مناقشات هذا الحوار يطول الكلام على ما تستطيعه المرأة وما يستطيعه الرجل من تدبير شئون البيت وتدبير شئون المدينة وشئون الدولة معها.

وموضع الملاحظة أن الدعوة الى السلم كانت نغمة الشعر والأدب فى عصر الشاعر الساخر اريستوفان ، وكانت هى النغمة التى رددها

يوربيدس شاعر الفاجعـــة والمأساة ، كما رددها شـــاعر الفكـــاهات والأضاحيك فى هذه المسرحية وفى غيرها من مسرحياته الاجتماعية . وتلاحظ هذه النغمة الغالبة على الأدب الاغريقى فى ذلك العصر مع كثير من العجب عند الذين يحسبون أن الشعر فى كل زمان ، وفى كل أمة ، موكل بالحماسة والنخوة ، مفتون بأنباء البطولة والمغامرة ، ولم يخطىء الذين حسبوا أن الحرب موضوع شعرى مألوف لأنها تبعث من عواطف الحماسة ما يبعثه الحب من عواطف الوجد والهيام وبواعث الهمـــة والاقدام . ولكن الحرب التى يفتتن بها خيال الشاعر انما هى حرب الملاحم ، أو حرب الحماسة الالهية بين الأرباب وأنصاف الأرباب ، وبين الأبطال الذين يبذلون الحياة فى سبيل آمال من المثل العليا هى أرفع من الحياة وأعز من الجاه والسلطان ومطامع المال والسياسة ، فاذا نزل الشاعر دون هذه الآفاق الى حروب المطامع السياسية ، والدسائس الحزبية ، والمناورات التى من ظاهرها الفخار وحماية الذمار ومن باطنها الخبث والعار وسوء الجوار ، فليس فى طاقة الخيال المحلق الى الآفاق أن يتقبل هذه الصورة بديلا من صور النبل والفداء فى ملاحم الأرباب والعظماء ، وقال فيها كل شاعر ما يقوله شاعرنا العربى :

الحرب أول ما تكون فتيـــة ... تسعى بزينتها لكل جهـــول
حتى اذا كبرت وشب ضرامها ... عادت عجوزا غير ذات خليـــل
شمطاء جزت شعرها وتنكرت ... مكروهة للشـــم والتقبيـــل

وهذه هى الحرب التى نعاها أريستوفان ويوربيدس ، وثارت النساء فى هذه المسرحية لاكراه الرجال على تركها وتخييرهم بين غواية الحرب وغواية الحب التى يحميها النساء بسلاح الاعراض والهجران ! .

والموضوع بجوهره وطريقة عرضه قابل للاغراق فى أساليب الأدب المكشوف ، وان طرقه الشاعر فى زمن من أزمنة العصور الحديثة التى اختلفت فيها وجهات النظر الى هذا الأدب بين المتزمتين المتحرجين من التعبيرات الصريحة فى مسائل الجنس أو مسائل العلاقة الجسدية بين

الجنسين . ولكن شعراء الزمن القديم لم يعرفوا هذا الحرج فى أزمنتهم الأولى، ولم يكن المازحون منهم يتحرجون من تعبير محظور كما كان يتحرج منه شعراء الجد ورواة الفجيعة والمأساة . فلا جرم ينطلق لسان « اريستوفان » الجرىء على كل شىء الى غاية مداه حيث يغريه المجال بتسفيه سلاح الحب وسلاح الحرب فى آن . وقد أصاب الناقد « بريزون » حين قال فى الحوار التالى – وهو يخاطب زميله اليونانى فى هذا الحوار : « ان المسرحية قد أصبحت دعابة فاجرة .. وأعتقد ياسيد ميخالوبولوس أنها فى اليونانية الأصلية قد قيلت بصراحة تامة ، ولا نستطيع على المسرح الأمريكى أن نضع لها ترجمتها الحرفية » .

ولكن ترى : هل هى مسألة اختلاف فى الأذواق حول الأدب المكشوف بين أمم البحر المتوسط وأمم القارة الأوربية التى شاعت فيها نظم الفروسية و « الرومانتيكية » كما قال الأستاذ ميخالوبولوس فى رده عليه ؟ وهل انقطع الأدب المكشوف فى عصر من عصور الفروسية أو عصور الأدب بعد عصر الثقافة الاغريقية ؟

ان الفرسان الذين خاطبوا (چان دارك) من وراء الأسوار لم تكن لهم لهجة « مطوية » فى خطاب المرأة المقاتلة غير هذه اللهجة التى ألقاها اريستوفان على ألسنة الرجال الاغريق وهم يخاطبون نساءهم المقاتلات . ويخطر لنا أن هذه اللهجة لم تكن عند الأقدمين لهجة أدب مكشوف ، أو لهجة أسلوب مباح وأسلوب محظور من أساليب الفن والكتابة ، ولكنها كانت هى اللهجة الطبيعية عند جميع الشعوب التى تعاقبت فيها الأجيال على تربية الحيوان وتوليد قطعانه واشتراك الرجل والمرأة معا فى علاجه ورياضته وتدريب ذكوره واناثه . ولم يتحرج الناس فى عصور الرعاة قط من التعبير الصريح عن هذه الأمور الا بعد انقضاء عهد الرعاية والرعاة واقتران الأسماء والكلمات بملابسات الأغراض والشهوات ، بعد أن تداولوها زمنا طويلا بمعانيها التى تشبه معانى الكلمات العلمية على موائد التشريح ، وربما كانت عودة هذه الكلمات والأسماء الى الظهور بعد

انتشار موائد التشريح وشيوع رياضة الأجساد هى العلة الاجتماعية الجديدة لهذه النكسة الى كلمات الأدب المكشوف .

وكلما اقتربت مشكلة الأدب المكشوف من حلها المعقول رأينا انها لا تقترب من هذا الحل على أساس التفرقة بين العرف الشائع فى هذا الزمن والعرف الشائع فى ذاك ، ولا على أساس التفضيل بين أذواق الناس فى مجتمع الرعاة وأذواقهم فى مجتمعات الزراع والفرسان . فان الأذواق عرضة للاختلاف الواسع بغير حجة قاطعة يقوم عليها الحكم لواحد منها على سواه ، وانما تقترب مشكلة الأدب المكشوف من حلها المعقول على أساس واحد : وهو أساس التفرقة بين التعبير المستقيم وبين التعبير المشوب بأغراض الشهوات والأهواء وأمراض الطباع المغلوبة على ارادتها السليمة فى معترك الحياة . ويقال بعبارة أخرى ان التفرقة هنا هى فى النهاية تفرقة بين المزاج الصحيح والمزاج المريض، وبين التعبير عن الطبيعة والتعبير عن النزعات السقيمة للاتجار بها وترويج البذاءة والدنس باستثارتها واشباع النفوس المنحرفة عن سوائها . وسوف تصير الأساليب المكشوفة فى الفن والأدب الى حلها المعقول بعد انتشار موائد التشريح والاقبال على رياضة الأبدان ، فلا ينتصر فيها عرف حديث على عرف قديم ، ولا ذوق من أذواق المجتمعات على ذوق سواه ، انما ينتصر التعبير عن الطبع على التعبير المدخول بدخائل المرض والتعويض والاستغلال .

ويسوقنا الكلام عن مزاج التعبير الى الكلام عن مزاج الشاعر « اريستوفان » وعن أثر هذا المزاج فى فنه المسرحى وأثر هذا الفن فى المشكلات الاجتماعية التى عالجها برواياته فى قالب السخرية والفكاهة . فلا ننسى أن مزاج الشاعر كان أبعد الأمزجة عن اللهو واللغو ، وعن الاباحة والمجون ، وأنه كان يضحك الناس ليستخدم الضحك فى توطيد الجد والمروءة وتثبيت دعائم الأخلاق الاجتماعية التى زعزعتها مفاسد الرخاء وكادت تجهز عليها أزمات الحروب ، وقد

يخطر على البال – للوهلة الأولى – أن الانطلاق مع اللهو والاباحة سمة ملازمة لمزاج الشاعر الساخر والفنان الضاحك وقوالب السخرية التى أحيانا بنعت المجون والتهريج . ولكن العبرة بهدف السخرية ، تنعت لا بالضحك الذى يلازم كل سخرية فنية أو سخرية أخلاقية . فاذا كان اعداء الجد والمروءة هم هدف الشاعر الساخر من أضاحيكه ونكاته فهو جاد صادق الجد وهم الهازلون الماجنون . ولا تتلازم الأضاحيك والاباحة المنطلقة من قيود الأخلاق فى هذه الحال ، بل تكون الأضاحيك سلاحا للمجتمع الغيور على أخلاقه ، ويكون الشاعر عنوانا للمحافظة على الأصول والتقاليد ، وهكذا كانت سنة « المحافظة » ديدنا لأمير الفكاهة فى قومه ، وكان همه الأكبر من مسرحياته أن يضحك المحافظين على المتبذلين المتهتكين ، ولم يكن يسخر ويمزح ليضحك الهازلين من أصحاب الجد والأدب الرصين .

وكان مطبوعا فى « جده » الضاحك ولم يكن متكلفا له ولا ذاهبا فيه مذهب المجاراة والمداراة لأبناء زمانه ، بل ربما كان أبناء زمانه أول ضحاياه وصرعاه ، وكان فضله فى فنه أنه استطاع أن يغلبهم على أنفسهم فيضحكهم من طبائعهم وعاداتهم وهم يحسبون أنهم يضحكون من « أناس آخرين ! » .

ومن هنا بقيت « ليزستراتا » فى كل زمن ، وبقيت لها دعوة « طبيعية » حيثما ظهرت للمرأة الخالدة دعوى من دعاوى الحرب المتجددة بين الجنسين على مدى الزمان ، وفى أوائل هذا القرن العشرين عادت « ليزستراتا » الى الظهور وقرأنا باسمها كتابا بقلم تلميذ من تلاميذ نيتشه هو الكاتب « ليودفتشى » رسول السوبرمان أو رسول « السوبرمان » فى اللغة الانجليزية اذا صح هذا القياس ... ورسالة « ليزستراتا » العصرية على رأى هذا الكاتب أنها تجاهد فى حرب الأمومة لاستخلاص الأبناء من أصلح الآباء ، وأصلح الآباء عنده هم القادرون على انجاب الذرية التى تستحق البقاء وترتقى بالانسان الى مرتبة

السوبرمان ، وقد مضى على ظهور « ليزستراتا » العصرية اكثر من نصف قرن ولم تتحقق فيه نبوءة واحدة من نبوءات الكاتب ولا رؤيا واحدة من رؤاه ، فان الدعوة النسوية اليوم انما هى دعوة المرأة العامة والرجل العام بنجوة من مصنع التوليد (النيتشى) الذى يخرج لنا السوبرمان والسوبرومان ، ولكن اريستوفان قد ترك بطلته من بعده صالحة لتمثيل أدوارها المتكررة على الزمن دورا بعد دور ، ولم يحوجها الى تغيير شىء من دعوتها فى لبابها غير تغيير الثياب والأزياء على مسرح الحياة .

عباس محمود العقاد